

مكانة التراث الشعبي في حفظ ذاكرة الأمة

د شريقي نورية

قسم الفنون - جامعة سيدي بلعباس

يشكل التراث مصدرا أساسيا من مصادر الإبداع والنشاط الفكري و الحضاري في الحياة الإنسانية ،فهو ذلك المخزون الثقافي المتنوع المتوارث من قبل الآباء والأجداد و المشتمل على القيم الدنية ، والتاريخية والحضارية و الشعبية ، يحيا به ويموت به و تموت شخصيته وهويته إذا ابتعد عنه أو فقده ، لذلك تنبعت الدراسات الأدبية لمجالات التراث الشعبي وفنونه المختلفة بعد أن ظل بعيدا عن اهتمامها فترة طويلة من عمر الأدب العربي ذاته ، و أخذت تفتش في وجدان الأمة عواطفها و أحاسيسها في محاولة للوصول إلى طبيعة التعبير عنه ووسائله . إذ أخذت تصنف فنون التراث الشعبي ، و تحاول الكشف عن خصائص كل فن منها على حدة مستعينة بأحدث ما ظهر من دراسات في مجال النقد والأدب .

يعد موضوع توظيف التراث الشعبي في النصوص الأدبية العالمية عموما العربية خصوصا ، و الجزائرية على وجه أخص من الإشكاليات المطروحة حاليا في الساحة النقدية، إذ يولونها اهتماما وعناية بالغين ، للكشف عن أسبابها الموضوعية و الفنية

الجمالية التي جعلت الكتاب ينبهرون أمام محموليتها الثرية ، ودلالاتها العميقة ، فقد ظل الموروث الشعبي الشفوي منه و المدون مادة خام ، يغترف منها الفنان ، مستلهما ما يناسب موضوعاته، على اختلاف الطبائع الميول الفكرية و الجمالية بين الأدباء و الكتاب و حسب قدرات تطويع هذه المصادر الشعبية الثرية، إذ يطرح مصطلح التراث الشعبي إشكالات عديدة في تحديد أطره ومجالاته، وذلك لشساعة حيّزه الحضاري الذي يركن عليه، وتشابك مجالاته الكثيرة التي ينطوي عليها، كما أن له علاقة وثيقة بوجود الإنسان خلال ماضيه وحاضره ومستقبله.

ويعرّفه أحد الباحثين على أنه "مصطلح شامل [...] نعني به عالما متشابكا من الموروث الحضاري، والبقايا السلوكية والقولية عبر التاريخ، وعبر الانتقال من بيئة إلى بيئة ومن مكان إلى مكان"¹ ، ومن هذا المنطلق يتجلى التراث الشعبي في كونه يشمل جميع ما أبدعه الإنسان لنفسه وتراكم عبر العصور، وانتشر عبر البيئات، فهو يضم عناصر متشابكة، لدرجة لا يمكن فصل أحدها عن الأخرى، فالممارسات التراثية العربية على سبيل المثال، تعد بحق ممارسات تراثية، ترسبت في الذهنية العربية قبل ظهور الإسلام، ثم امتزجت بالممارسات الدينية الإسلامية، واصطبغت بتعاليمه فلم يعد بالإمكان عزلها عن بعضها البعض². حيث أن الحضارة العربية الإسلامية "قد عرفت العديد من الظواهر المسرحية التي تعد دون شك الحصيصة الشعبية المتبقية من

الممارسات الشعبية لأبناء هذه الأمة سواء منها ما تبقى من ممارسات شعبية عرفتها شعوب المنطقة قبل الإسلام أو ما تم ممارسته بعد الإسلام"3.

يعد القصص القرآني في الإسلام، بما يتضمنه من أساليب حكاية وأخبار عن الأنبياء والرسل-عليهم السلام- ورجال التاريخ، وحياة الشعوب، نقطة بارزة في بلورة مثلاً مفهوم الحكاية الشعبية التي يتضمنها التراث الشعبي العربي، حيث أسهم القرآن الكريم بشكل أو بآخر، في إعطاء صبغة جديدة، تجلت في استنساخ أسلوبه، ومضامينه، من أجل إعادة صياغتها في أسلوب شفاهي، مثلما جرى مع حكاية النبي "يوسف" -عليه السلام- إذ أنها رويت بطرق شتى على يد القصاصين⁴ لهذا ليس من السهل فهم نمط تراثي، دون المرور بإسهامات الأجيال أو الوقوف على علاقته بباقي الأنماط التراثية الأخرى، كما أن مصطلح التراث الشعبي وفقاً لما وضعه الدارسون هو الموروث الشعبي-على- مدى الأجيال، من أفعال وعادات وأقوال تتناول مظاهر الحياة العامة والخاصة وطرائق الاتصال بين الأفراد والجماعات، والحفاظ على العلاقة الودية في المناسبات المختلفة بوسائل متعددة، والاحتفال بالمناسبات التي يبدو من طرائقها عدد كبير من معتقدات الشعب الدينية والروحية والتاريخية .

غير أن الباحث "محمد راتب الحلاق" يرى أن ثمة فرقاً بين التراث الشعبي والموروث الشعبي فبالنسبة إليه يتوضح الأول على أنه

"الثابت-نسبيا والعام والكلي"5 ، ويقابله الثاني بتعريفه على أنه "كل متحول متغير"6 والحال أن الموروث الشعبي، مفهوم أشمل من التراث الشعبي، بل إنه يحتويه، ذلك "يضم كل ما أنجزه الأسلاف، وكل ما فكروا فيه"7. منه ما اندثر وتلاشى مع مرور الوقت، وبتأثير الظروف، مثلما هو الحال بالنسبة لتلك الطقوس التعبدية العقائدية عند الفراعنة واليونانيين، وغيرهم ، ومن هم مابقي ومازال يمتلك مفاعيل تأثيره في المجتمع وهو التراث ويظهر ذلك في أنواع شتى من المظاهر التراثية مثل الأعياد الدينية وظواهر التمثيلية وحكاية الغيلان حيث أن "العودة إلى دراسة هذه الظواهر وإعادة انبعائها مرة أخرى يعد أمرا هاما يؤكد لنا ولغيرنا أن المسرح في المنطقة العربية قد نشأ معتمدا على جذور دينية وشعبية"8. فمثلما كانت البدايات الأولى للمسرح الفرعوني أو الإغريقي أو الروماني معتمدة على التراث في أساسها، اعتمدت البدايات الأولى للمسرح العربي على التراث الشعبي والديني والأسطوري.

إن معظم الدارسين والباحثين يركزون جهدهم الاستقصائي على التراث من ناحية علاقته بالمجتمع، ذلك لأن روحه مازالت باقية فينا، تحرك عقليتنا، وتضع غمط حياتنا و"التراث الشعبي يتسع ليشمل كل شيء العادات والتقاليد والأزياء والطقوس المختلفة في المناسبات كطقوس الزواج والميلاد والسبوع [...] بل يستع ليشمل سلوكيات الأفراد في حياتهم اليومية وانتقال "الأصول" من جيل لآخر [...] وتنتقل هذه "الأصول" مع بعض إضافات من جيل لآخر"9، كما أن

التراث الشعبي يظهر هنا العامل الأهم، الذي يعطي لكل مجتمع صبغته الخاصة، بل لكل جيل من ذلك المجتمع، نمطه المعيشي والثقافي الخاص به، لأجل ذلك فإن قواعد التراث الشعبي ومبادئه وکلياته ومنطقاته، لا يمكن لأي مجتمع، بأي حال من الأحوال، الاستغناء عنها لأنها تمثل أركان الهوية التي يعرف بها.

أقسام التراث الشعبي:

إن إسهامات المجتمعات في بلورة حيزها الثقافي أفضى إلى تقسيم التراث الشعبي بين ما هو مادي، وبين ما هو روحي، وذلك تبعاً لسلوكياتها الإسهامية فيه، فالتراث يعبر عن مجتمع ما يخص الإنسان العربي مادياً ومعنوياً، بل هو جزء من مكونات الإنسان العربي ونفسيته، فيشمل بذلك "التقاليد والعادات والتجارب والخبرات والفنون [...]" إنه جزء أساس من موقفه الاجتماعي والإنساني والسياسي والتاريخي¹⁰. ويمكن إدراج كذلك جوانب أخرى مما يتسم به التفكير العربي أو ما تتطلبه حاجات التطور في الواقع الجديد الذي نعيش فيه، وهو ينقسم إلى

1- التراث المادي :

يتضمن التراث المادي العديد من الجوانب المختلفة التي خلفها الإنسان من وراءه، فهي تدل على فلسفة عصر من العصور أو نمط عيش مجتمع ما، بكل أبعاده وتجلياته، ويتضمن التراث المادي فن

العمارة، والمخطوطات المتبقية التي خلفها الأسلاف من مفكرين وأدباء وغير ذلك¹¹

إن هذا القسم من التراث الشعبي، يضم تلك الجوانب من الإبداعات المادية التي اختفت باختفاء مجتمعاتها، وحتى وإن بقيت فإنها لا تؤدي وظيفتها التي من أجلها أبدعت إنها سجينة ماضيها، ويأخذ التراث الشعبي في هذا القسم بعدا إحيائيا، لكن دون أن يحدث بعدا إحيائيا في حاضر الشعوب.

2- التراث الروحي:

يمثل قسم التراث الروحي تلك المنظومة من القيم والتقاليد والعادات والتراث الشفاهي من أمثال وحكم وأقوال مأثورة، ودلالات لفظية متميزة، وأشكال تعبيرية وتمثيلية، وحكايات وأساطير ونكات، تتميز بها بقعة جغرافية ما، ويعيش عليها مجتمع بشري معين، في فترة زمنية مقررة¹² فالتراث شامل لكل الأنواع، الشفوي والمكتوب يتعلق بالإنسان بوصفه إنسانا بغض النظر عن جنسيته أو عقيدته أو وطنه "فالتراث هو كل ما ورثه الخلف عن السلف أو ما تركه الجيل السابق للجيل اللاحق"¹³، وتتألف عناصر التراث الشعبي الروحي من أساطير وملاحم وروايات وقصص وحكايات شعبية وأشعار وأغان وحكم وأمثال شعبية.

ويعتبر هذا القسم من التراث الشعبي جزءا من حياة المجتمعات الواصلة بين ماضيها وحاضرها حيث إنه بكل ما يحمله من مضامين،

وأشكال وعناصر ما يزال باق حتى يومنا، وهذا ما يبرز جليا من خلال الحكم والأمثال الشعبية العربية مثلا، والتي توارثتها الأجيال شفويا، وهي باقية، مازالت تحافظ على معانيها التي اكتسبتها منذ فترة بعيدة .

يحمل التراث الشعبي العديد من الخصائص التي تميزه، تتمحور كلها حول علاقته الوثيقة بالمجتمع الإنساني، ومن بين هذه الخصائص نجد:

1- التراث الشعبي ذاكرة الشعوب:

يعتبر التراث الشعبي بكل ما يحمل من أشكال ومضامين، بمثابة الكاشف الوجداني الجماعي للشعوب المتنوعة الثقافات بمختلف أجناسها، لكونه يمثل ذاكرتها الجماعية، التي يختزنها في ذهنه، ويمارسها عن طريق سلوكه، وتحمله الأجيال الإنسانية في تعاقبها وترابطها¹⁴. فالتراث الشعبي لا يعبر عن وجدان فردي واحد وإنما يعبر عن وجدان جماعي لأنه يحمل تراث أمة بأكملها فيصبح بذلك ضميرها الحي ووجدانها المعبر عن موروثاتها وأمالها وآلامها.

2- قابلية التأثير:

تتأثر الأمم ببعضها البعض في جميع الجوانب الحياتية، وهذا لا يعد انسلاخا من التجدر الثقافي، المغروس في الأمة بقدر ما هو إفادة لها من أجل تكامل أفضل يوطر المرتكزات التراثية لديها ، ويشترط "محمد غنيمي هلال" أن يكون استفادة التراث الشعبي من باقي الثقافات العالمية مقرونا بأصالة الأفراد والمجتمعات المتأثرة، وأصالة

قوميتهم، كي يتمكنوا من إصباح النماذج الثقافية الواردة إليهم، بأسلوبهم السلوكي الخاص الذي يتميزون به، دون اللجوء إلى شبهات التقليد الأعمى الذي يحجب الخصوصية الثقافية في تحليلها السلوكي لأولئك الأفراد¹⁵.

3- خاصتي المرونة والتطور:

لقد أسهمت الأجيال المتعاقبة عبر تاريخ الأمم والجماعات الإنسانية في إثراء كتلتها التراثية على مر الزمن، دون أن تفسد محتواها أو تتلفها، فتحملت تلك الكتلة التراثية على مر الزمن متناسقة الأجزاء والعناصر، غير متنافرة، وهذا ما يعطي التراث الشعبي ميزتي المرونة وقابلية التطور¹⁶.

4- مجهولية المؤلف:

إن التراث الشعبي بكل ما يحمل من إبداعات فردية أو جماعية، يعتبر إسهام الأجيال الإنسانية عبر العصور، على اختلافها، فلم يكن للتراث الشعبي يوما ما مبدعا معيــــــــــــنا، ذلك أن قصص "ألف ليلة وليلة" و"بقرة اليتامى"، لم تنسب قط إلى مؤلف معين وهذا ما جعلها تــــــــنظم إلى المنظومة التراثية الشعبية¹⁷ لأن كل ما هو معلوم مؤلفه يدخل في "الأدب العامي"¹⁸.

التــــــــــــراث الشفهــــــــــــي:

إن التراث الشعبي يشمل ما تراكم خلال الأزمنة من موروث أمة مدى الأجيال من أفعال وعادات وتقاليد وسلوكيات وفنون وكل ما يتعلق بالتركة التي يرثها الشعب عن الأجداد، ويقصد به تلك العناصر الثقافية التي تتوارثها الأجيال عن بعضها البعض في مختلف الطبقات الاجتماعية ويتوقف مدلولها على السياق الذي توظف فيه، ويتصف التراث الشعبي بعدة سمها أهمها: الشفهية والعراقية، والواقعية، كما أنه يتدخل مع فروع المعارف والفنون الشعبية الأخرى. 19 ، ويرى "قاسم عبده قاسم" أن الموروث الثقافي الذي يتجلى في طابعه الخطابي الشفهي يعتبر نواة تاريخية بالأساس، إذ يفسر - من وجهة نظره، أحداث التاريخ برؤى وآليات شعبية، تحمل من الخيال والرموز ما تحمل، لتخدم أهدافا وقضايا اجتماعية وثقافية مزدوجة. 20

يمثل التراث الشعبي في طابعه الشفهي، تفسيراً من المنظور الشعبي، و"تعبيراً عن الواقع النفسي والاجتماعي" 21 عند الشعوب الإنسانية، فالحكاية الشعبية التي تروي الملاحم والأبطال ومغامراتهم، ما هي في الواقع غير حكاية تحمل نظرة الأفراد لواقع تاريخي معين، مثلما هو الحال في بطولات "سيف بن ذي يزن" أو "عنتر بن شداد العبسي" أو "الظاهر بيبرس"، وغيرهم فقد نسجت عنهم المآثر الأسطورية، في حين أن حياتهم من الناحية التاريخية، لا يمكن أن تتخطى حدود الواقع

إن هذه التفسيرات الشعبية للتاريخ في تمظهرها، من خلال الحكايات والأساطير والنكات متشعبة بالترعة الذاتية في معالجة حياة الأبطال وبلورة سلوكياتهم، وذلك لأنها "لا تسعى إلى كشف حقائق التاريخ، التي وقعت في الماضي، وإنما إلى تفسير التاريخ لصالح الجماعة"²² ويظهر هذا بصورة واضحة في ملاحم الأبطال القوميين وما تدونه حكاياتهم من مغامرات تتجاوز الواقع نحو الخيال، وذلك تلبية للحاجات الاجتماعية والثقافية والنفسية لأفراد ذلك المجتمع، الذي ينتمي إليه هؤلاء الأبطال، من جانب آخر تعد الأسطورة باعتبارها أحد الأنماط الشفهية الشعبية، تحمل الطابع الذاتي في صياغة مضامينها، وذلك لأنها تفسر بمنطق الفعل البدائي ظواهر الكون والطبيعة.²³ فغياب الجانب الموضوعي في تفسير ظواهر الكون والطبيعة، والقائم على العلم، جعلت الإنسان يلجأ إلى خياله، ليبرر ما يحدث من حوله، عن طريق تجاربه الأولى مع الطبيعة واحتكاكه بها ومن هذه النقطة تظهر الأهمية البالغة التي يحملها التراث الشفهي عند المجتمعات الإنسانية.

يعتمد التراث الشعبي الشفهي على "الرواية والحفظ" في انتقاله من جيل لآخر ومن عصر إلى عصر و"قد روت كتب تراث الأدب قدرا كبيرا مما انتقل شفاهة عبر العصور العربية القديمة إلى عصر ما قبل الإسلام مباشرة وما تضمنته من قصص حول بدء الخلق وحياة الإنسان على الأرض وتوزع القبائل وعلاقتها وحروبها وأبطالها وأيامها والتي كانت نواة العديد من القصص القصيرة والملاحم

الشعبية"24، إن طرق الرواية أو الحفظ للموروث الشعبي كانت وراء تغير بعض عناصره وفقا لطبيعة المتلقي كذلك الذي يستحسن موقفا يدفع "الـراوي" إلى المبالغة فيه والإعادة أو التطويل اجتلابا لمزيد من الاستحسان.

إن هذا الموروث الشعبي الشفوي لا ينتقل من عصر إلى عصر دون تغير ولكنه ينتقل مصحوبا بظواهر مؤثرة قد تكون مغيرة في حركة الموروث الشعبي ودلالاته، بكل ما يتضمن من أنماط تعبيرية لغوية وتمثيلية متعددة حيث "أن هذا الموروث الشعبي الشفوي لا يمكن أن ينتقل عبر أجيال متعاقبة وعصور متلاحقة دون تغير على صعيد المفردة اللغوية في الأغاني الشعبية أو في القصص الشعبي مثلا"25، إن هذه المتغيرات التي تطرأ على الموروث الشعبي، عبر الأحقاب قد تضيف إليه أشياء في محاولة إثرائه، ومن ثم تطبعه بسيرة العصر، لتقدمه إلى العصور القادمة فتضع هي الأخرى طابعها وتصبغه بصبغتها، فمثلا المداح أو القوال في حلقاته قد يسعى إلى تغيير بعض السير الشعبية وفقا لطبيعة الجمهور المتلقي الذي يدفعه إلى المبالغة والزيادة سعيا وراء التجادل مع النص المروي.

التراث الشعبي كائن حي يتنفس ويعيش في المواضيع التي يحسن فيها استعماله، حيث يشع بتدفق الزخم الرامز والدلالات الموحية الى المعاني المتجددة، المتوالدة والتي ترمي في أغلبها الى إضاءة الجوانب المظلمة في حياة الإنسان، وهو بذلك ليس صورة جامدة جاهزة

تستعمل لاستكمال ملامح مشهد فحسب ، ولكنه عالم قائم بذاته
بإيحاءاته التعبيرية الدالة على جميع أعراض الحياة التي جربها الفرد ومر
بها سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية، والتي إذا
أحسن الفنان استعماله للموروث الشعبي ، فإنه يجعل منه أداة طيعة
تساعده إبداع عمل أدبي يعبر من خلاله عن أمته و شعبه أخذا رموز
تعبيرته الموحية المتجاوزة لعنصري الزمان و المكان وذلك لأن
الجزئيات التراثية الشعبية ، لاتزال محافظة على رونق جمالها ، وقوة
مضمونها الانساني رغم تعاقب الأجيال ن ومرور الأحقاب .

- 01- فاروق خورشيد "الموروث الشعبي" دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1992، ص12.
- 02- ينظر: م ن، ص23.
- 03- أحمد صقر "توظيف التراث الشعبي في المسرح العربي"، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، (د ت) ص19.
- 04- ينظر: ابن الجزي "تلبيس إبليس" دار الفكر للطباعة والنشر، مكة المكرمة، (د ط) (د ت) ص112.
- 05- ينظر، حلمي بدير "أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث" دار الوفاء للنشر والطباعة والنشر إسكندرية، ط1، 2003، ص15.
- 06- محمد راتب الحلاق "نحن والآخر" منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ص46.
- 07- م ن، ص46.
- 08- م ن، ص46.
- 09- أحمد صقر، م س، ص19.
- 10- عبد النور جبور "المعجم الأدبي" - دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص22.
- 11- ينظر: محمد قجة "الحداثة والتراث"، مجلة الموقف الأدبي إتحاد الكتاب العرب، سوريا، ع14، ص50.
- 12- ينظر: محمد قجة، م س، ص50.
- 13- حلمي بدير، م س، ص13.
- 14- حسن علي المخلف، م س، ص21.
- 15- ينظر: نبيلة إبراهيم "أشكال التعبير في الأدب الشعبي"، دار فضاء مصر للطباعة والنشر، مصر، ط3، 1991، ص04.
- 16- ينظر: محمد غنيمي هلال، "الأدب المقارن"، دار العودة، بيروت، لبنان، 1980، (د ط)، ص106.
- 17- ينظر: حسين جمعة "الذاكرة الشفاهية بين العرب والصهانية" مجلة الموقف الأدبي، إتحاد الكتاب العرب، سوريا، ع423، تموز 2006، ص75.

- 18- ينظر: بلحيا الطاهر "التراث الشعبي في الرواية الجزائرية" منشورات التبيين الجزائر (د ط)، 2000 ص12
- 19- ينظر: حلمي بدير، م س، ص16.
- 20- ينظر: بن ذهيبة بن نكاع، م س، ص11.
- 21- ينظر: "قاسم عبده قاسم" "القراءة الشعبية للتاريخ"، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ع493، ديسمبر 1999، ص362.
- 22- عبد الحميد بورايو، "البطل الملحمي والبطلة الضعيفة في أدب الشعوب الجزائري"، ديوان المطبوعات الجامعية (د.ط) 1998، ص21.
- 23- عبد الحميد بورايو، م س، ص37.
- 24- ينظر: "قاسم عبده قاسم" "القراءة الشعبية للتاريخ"، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ع493، ديسمبر 1999، ص362.
- 25- ينظر: "قاسم عبده قاسم" "القراءة الشعبية للتاريخ"، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، ع493، ديسمبر 1999، ص362.